نصيحة !...

مترجمة عن مجلة « نروستوري »
بقلم السيد ناصر عزيز

طلعت إحدى الصحف الصادرة فى (أمريكا) ذات يوم على القراء وفى إحدى زواياها نبأ مؤلم تحت عنوان : « خطاب عائلى » وهذا نصه :

هنالك أسرة تتألف من الأب (حنا) وزوجته (مرغريت) وأطفالها الأربعة . وقد كانت إلى عهد قريب أسرة سعيدة هانئة ؛ ولكن الدهر يأبى أن يبقى على سعادة أو يديم سروراً

فقد هربت ابنة حنا الكبرى بصحبة رجل متزوج لكى تعيش معه . وكم كان وقع هذه المصيبة على هذه الأسرة أليماً ؟! لقد أصبح أعضاؤها نهب الأسى والغم ، وشعروا بالخجل يغمرهم والخزى يحيط بهم فسحبوا أنفسهم من المجتمعات وأصبحوا عن أصدقائهم بمعزل

ثم أوعزت (مرغريت) إلى (حنا) أن يبيع حانوته بغية الرحيل إلى مدينة نائية حيث لا صلة لأحد بهم ولا علم له بعارهم

ولكن حنا .. كان من رأيه أنه ليس لمجرد فضيحة فرد من أفراد الأسرة يهيم الباقون على وجوههم فراراً من ذلك العار . . . لقد حلت النكبة ... فالأحرى بهم أن يلبثوا فى محلهم وألا يذهبوا بعيداً ، وأن يصمدوا للأرزاء حتى تخف وتلين قناتها . . . »

* * *

ولم تلبث نفس الصحيفة أن طلعت على القراء بعد يومين بخطاب خارجى موجه إلى حنا ومرغريت رئيسى الأسرة المنكوبة ، وكان هذا نصه :

عزيزتى مارغريت ... عزيزى حنا

ما أشد الشبه بين موقفكم الآن بعد نكبتكم وآخر وقفته أسرتى لعشر سنين خلت ! وسأقص عليكم حادثنا مفصلاً على قدر إمكانى آملة أن تجدوا فيه عزاء لمصابكم وسلواناً :

كان عدد أفراد أسرتنا مطابقاً تمام الانطباق لأفراد أسرتكم : أب وأم وثلاث بنات كبار وابن صغير ، وقد كان الأخ على أى حال أصغرنا سناً وأنا أليه فى الكبر

عشنا فى بلدة لا تقاس بمدينتكم ، فقد كانت صغيرة الحجم ولا يربو عدد سكانها على ستة آلاف شخص ، وفى مثل هذه البلدة يندر ألا يكون شخص ملماً بأسماء باقى الأشخاص وأحوالهم ، وعلى ذلك كنا معروفين من السكان جميعاً . وهذا وحده كاف لجعل فضيحتنا أشد من أن تحتمل

لعشر سنوات مضت ... بدأت أختي الكبرى المشرفة على الثالثة والعشرين تماشي رجلاً متزوجاً ولم يمض طويل وقت حتى عرف الجميع ذلك

ولم نكن لندرك ما سيعقب ذلك حتى نزلت المصيبة !

فقد أعلنت جهراً فجأة أنها عازمة على الذهاب بصحبة الرجل المتزوج للمعيشة معه ... وتركت البيت فعلاً إثر تصريحها وصحبته حيث أخذا في التنقل من محل لآخر كما كانت تستدعيه لذلك أعماله ... ولكنهما كثيراً ما قصدا بلدتنا في عطلة آخر الأسبوع أو في العطل الأخرى ...

وما كاد يطرق سمع زوجة الرجل علاقته بأختي حتى طلبت الطلاق على الفور ... وقد أجيب مطلبها في الوقت المناسب

وعلى أثر ذلك اقترن الرجل بأختي (سوزان) وعاشا في بيته رغم قضائهما جلّ الأوقات في السفر والتنقّل

وهكذا ... ضربت أختي سوزان رقماً قياسياً في الوقاحة إذ ذهبت تنهل السعادة من أحضان زوجها وخلفتنا نحرق الأرم ونندب حظنا العاثر ... ونرجو بأزوائنا اندمال قلبنا المكلوم !

كان أبي يشتغل في معمل إعداد اللوازم الحديدية ، وكان يظهر عليه أنه قادر على تجميل بيته وتجهيزه وإدخال ضروب اللهو والترف إلى أسرته ...

وقد أنهى بصحبة أمي الشعار الأكبر من عمره في المدن ... فأصبحا بذلك ذوي صلة بكثير من الأصدقاء

من المعلوم أن الخطب يشتد وقعه على المرء كلما عظم شأنه ، وتعالى قدره ! فمن البديهي أن يعظم في نظرنا ما نزل بنا ، ونحن أسرة ألفت المجتمعات ، وربطتها التقاليد الدينية السائدة ، فكان أفرادها في الكنيسة أعضاء عاملين !

أنهيت تحصيلي العالي في الكلية وأنا مشرفة على الحادية والعشرين ... وسرعان ما شغلت وظيفة تدريسية شاغرة في مدرسة محلية ...

أما أختي سوزان فلم تدرس سوى سنتين فقط

في البدء ... لم نكن نظن أننا سنقع في فضيحة ... أما الآن وقد حلت الكارثة وأصابنا القدر بسهمه الصائب فقد حجبنا أنفسنا عن جميع الناس ... حتى عن أصدقائنا القدماء ! ولا تسألي عما دهى أخي وأختي الصغرى أثناء تنقلهما في المدارس المديدة لتلقي العلم ، من ألم وكمد ! ..

وقد دار بخلدنا أخيراً أن مواجهة الصدمة في محلنا ليس في قدرتنا ، فاعتزمنا الرحيل ... وكان علينا قبل تنفيذ فكرتنا أن نعمل أشياء كثيرة بسرعة متناهية ... لذلك ألححنا على الوالد أن يترك شغله دون أن يتقاضى لقاء خدماته الطويلة شيئاً ! غير أنه كان قد ادخر من شغله قليلاً من المال كان خير عون لنا بعد أن تنكر لنا الدهر ، فصممنا على تشييد دار جديدة لنا ... بعيداً جداً ... حيث لا يعرفنا أحد

ولم يواتنا الحظ في بيع دارنا (وهل لي أن أقول إننا ذوو حظ ؟) ، فإننا لم نجد لها شارياً فتركناها خاوية ! ...

تركنا دارنا بعد أن أدبر عنا الحظ ، قاصدين بلداً

بعيداً نأمن به شر العار ... وأخيراً أشرفنا على قرية س ... الصغيرة النائية فمشنا فيها ، وكانت هذه القرية واقعة فى الشمال ، وقد تيسر لى الحصول على وظيفة تدريسية فيها .

ههنا سبتمبر ونحن فى مقرنا الجديد ، وقد عثر والدى على شغل ولو أنه لم يكن راغباً فيه ...

وكان من المنتظر أن نكون فرحين بعد عثورنا على مورد معيشتنا ، ولكن فى الحقيقة لم نكن كذلك ! فقد غدت والدتى مريضة قانطة ، ولم تكن تقدر أنها ستشعر بكل هذه الآلام حتى كانت تحثنا على الرحيل ، وقد كان عجيباً حقاً أن تشعر بأى ألم بعد انتقالنا إلى عشنا الجديد تاركين مهد الفضيحة وراءنا بعيداً ، ولكن لعل ذلك راجع إلى انقطاعها عن الأصدقاء القدماء ... الأصدقاء الذين تربطنا بهم رابطة الصداقة المتينة التى يرجع عهدها إلى زمن الطفولة ، وقد أحس والدى أيضاً بهذه الخسارة برغم أننا لم نعدم أصدقاء عديدين فى محلنا الجديد ، ولكن ما أشد تباين الصداقتين !

والآن ، لأبسط لكم حالنا .. لقد لزمنى المرض والقلق ، وكان هذا حال أختى الصغرى ، وأخى بوب المشرف على الخامسة عشرة !

وسوف لا أطيل الكلام حول تلك السنة التى قضيناها فى قرية س ... وإنما يكفى أن أقول إن والدتى ضعضعها المرض طوال الشتاء ، ولزمتنى الكآبة مع أختى وأخى

أما والدى فبالرغم من تركه العمل لم يكن يشكو شيئاً ، ولكن ظهر عليه أنه يتقدم فى العمر بسرعة ولم نعد نرى ابتسامته القديمة المشرقة : تلك الابتسامة التى طالما علت شفتيه فأسكرتنا بهجة ورضى

وأخيراً ... حدث الأمر الذى لا مفر منه !

مهما أردت التخلص من شىء بهروبك منه وجدت ذلك الشىء مندفعاً نحوك اندفاع السهم ، لا يعوقه عن مواجهتك عائق خصوصاً إذا كان فى الأمر فضيحة

فقد قذفت الأقدار إلى قريتنا شاباً جاء من مدينتنا القديمة لقضاء عطلة عيد الفصح فيها ، وبشاء حظنا العاثر أن يلمح أخى (بوب) فى الطريق وأن يعرفه على الفور ! ولم يأل جهداً فى استقصاء أخبارنا فعلم أننى أشغل وظيفة تدريسية ، وهنا تأتى بقية القصة

رجعت إلى وظيفتى بعد انقضاء العيد ، ولكنى لم أكد أخطو فيها حتى لمست فى الجو تكهرباً . وقلما أخطأ شعور الإنسان إذ ما لبثت أن كشفت سر ذلك التكهرب ، فقد أخطرتنى المدرسة باستغنائها عن خدماتى منذ الآن !

يا لله ! أيلاحظ التحس البائس أينما حل ! ماذا ترانى فاعلة بعد هذا المصاب ؟ ولم يبق لدى شك فى أن حالة والدتى الصحية ستزداد رداءة وخطورة عما كانت عليه فى السنة الماضية . وظهر لدينا جلياً أن سحابة اليأس والقنوط موشكة أن تظلنا جميعاً

ولم يكن فى وسعنا بعد الآن غير السفر ثانية إلى بلدة أخرى نلتمس فيها الاستقرار والصحة . فسافرنا فعلاً وحمد والدى الأقدار على أنها لم تربطه الآن بعمل آخر ليضحى ثانية به .

ألقت السفينة مرساها فى مدينة تناثرت المصانع فى أرجائها ، وتعالت سحب الدخان من أفواه المداخن

كئيبة قاتمة ... فنزلنا فى تلك الدينة مصممين على السكنى فيها .

وبعد أيام أسعفنى الحظ بالعثور على وظيفة تدريسية فى (مدينة المصانع) ... وكان لرئيسى القديم الفضل الأكبر فى إيجادها لى .

أما أختى وأخى فقد شغلا وظيفتين فى حانوتين صغيرين ، فقد كان من العسير جداً العثور على وظائف حسنة فى ذلك الوقت . وكانت الحاجة أيضاً هى التى دفعتهما لهذا الشغل التافه الأجرة .

وقد كان الشتاء التالى من أشد أيام حياتنا إذ لم يكن بيتنا مريحاً كالبيوت التى اكترياها سابقاً ... ولم يشأ والدى أن يتورط فى شغل آخر بعد الآن !

* * *

انصرم الشتاء وأقبل الربيع بإشراقه ، وعبير أزهاره ، وسحر جماله ، حاملاً تحت طياته نبأ خطيراً

فقد وافتنا الأنباء بحلول كارثة مروعة شتتت شمل أختى سوزان وبعلها ... ومفاد تلك الأخبار أن السيارة التى كانا يسوقانها انقلبت فقتل الزوج شر قتلة ، وأصيبت سوزان بجراح خطيرة نقلت على أثرها إلى المستشفى وهى بين الحياة والموت !

هل تحسبان أننا فكرنا يوماً فى الذهاب إليها ؟

نحن كثيراً ما دعونا وابتهلنا لو أنها ماتت ، إذاً لكان ذلك أولى من أن تجلب لأسرتنا تلك الفضيحة !

أما الآن ... وهى بين براثن الموت ... فهل فى الإمكان نكرانها ؟!

تحرك الحب الأمى وهو أقوى صلة وأعظم رابطة على سطح الأرض !

من الجائز أن والدتى قد ظنت فى وقت من الأوقات — بسبب الفضيحة — أنها قطعت تلك الرابطة وأسقطت ابنتها من حسابها ، ولكن ... ولكن صرخة الطفل وقت الكرب يجب أن تلبى !

وهكذا كان ... فقد قرر والدى ووالدتى الذهاب لرؤية سوزان ، ولم يمكنى تركهما يذهبان دون أن أرافقهما ... فقد كانت صحة والدتى متضعضعة وخشيت أن تصبح السفرة ولقاء الجريمة وبالاً عليها ، لذلك صحبتهما

لا أنسى قط نظرة الارتياب المشوبة بالفرح التي ظهرت على وجه سوزان المعذبة عند ما فتحت عينيها فأبصرت بوالدتها واقفة بجانب سريرها !

كانت لحظة عنيفة خالدة ... أتت على جميع ما حمل قلب والدتى من الأحقاد التى ولدتها السنتان الخاليتان ! لقد أجهشت فى البكاء ، وأخذت دموعى تنهمل على خدىّ ... وفى نفس الوقت تملكتنى الدهشة وعرانى الذهول لما أبصرت من قدرة والدتى على التجلد وحبس الدموع فى ذلك الموقف الهائل !

والدتى التى كانت آثار المرض : مرض الجسم والنفس ، ظاهرة على قسمات وجهها بجلاء ووضوح !

مضت بضعة أيام كانت حياة أختى سوزان خلالها معلقة فى الميزان ، ولكن والدتى لم تدع لليأس إلى نفسها سبيلاً . وأخيراً ... أخذ الخطر يزول تدريجيًّا حتى أيقنّا أن سوزان لن تلبث طويلاً أن تتعافى !

كنا أثناء زيارتنا سوزان قد استأجرنا غرفاً فى إحدى المنازل ، فقصدنا أصدقاء كثيرون ليعربوا عن سرورهم بشفاء سوزان .

لماذا لا ترجعون للمعيشة فى منزلكم ؟ لماذا بالله؟

كان هذا السؤال يتردد على ألسنة جميع أصدقائنا وقد أسمعونا إياه أكثر من مرة . حقا .. لقد خطرت لنا نفس الفكرة حيناً ثم أخذت فى النمو ... لماذا لا نرجع إلى منزلنا الذي لا زلنا نملكه ... ؟ لماذا لا نهرع إليه فى التو واللحظة بعد كل ما حدث !

ولم يلبث الخاطر أن بعث إلى العمل وتحقق . فقد رجعنا إلى منزلنا فى البلدة ، وقفلت راجعة لأنهى أجل تعليمى فى (مدينة المصانع) ... وبعد ذلك قصدت دارنا فى بولية حيث كانت فى انتظارى وظيفة تدريسية ... نفس الوظيفة التى أسندت إلى قبل فرارنا بسنتين ؟

لشد ما تتبدل الأحوال ! فقد وجدنا بعد رجوعنا إلى منزلنا القديم فى بلدتنا أن العار القديم قد طمست معالمه وتطرق إليه النسيان فقد كانت السنتان اللتان احتجبنا فيهما كفيلتين بتخفيف وطء العار القديم ، وتقليل تأثيره . أما نحن فنادراً ما كنا نفكر فيه

دخلت سوزان على أثر شفائها المستشفى للتدرب على التمريض ، وقد برعت فى عملها فأرسلت إلى مدينة نائية لتقوم بعملها كممرضة ؛ ولا زالت إلى الآن تمارس مهنتها بجد ونشاط . ولم يكن يؤرقها ويشغل فكرها سوى شيء واحد : ذلك هو عارها القديم !

آه لو أمكن اندثاره ونسيانه ، إذاً لعاشت سعيدة هانئة !

وكأنما الأقدار أشفقت عليها مما حل بها فحققت أمنيتها ! فقد أمكنها من تكوين شخصية محبوبة لا تمت لشخصيتها الأولى بسبب . فقد أحبها الناس لبشاشتها ورقتها وحدبها على الفقراء وطول باعها فى العمل ! ثم أخذت بين مدة وأخرى تزورنا فبرهنت بذلك على توبتها واستقامتها !

* * *

وأخيراً تزوجت منذ خمس سنوات وسبقتنى أختى الصغرى فى زواجها بسنة واحدة ، وعشنا سعيدتين بالقرب من والدينا . وبفضل ابتسام الحظ وزوال التجهم أصبح والدى قادراً على المساهمة فى الشركة التى كان بها عاملاً من قبل . ولم تلبث الشركة أن أصبحت تحت إدارته الحازمة حيث لاقت نجاحاً باهراً فاتسعت أعمالها وعظمت شهرتها !

أما والدتى فقد استرجعت سرورها وبشرها ، ولم يعد يقلقها المرض ثانية ، ولم يزل أخى بوب فى عمله مثال النشاط والإقدام !

* * *

فلأجل ذلك ... أحب أن أهمس فى أذنك يا عزيزى حنا ألا تضحى بعملك وبمجهوداتك التى بذلتها فى أحسن سنى حياتك متشبثاً بالأمل الواهى ، الأمل فى إيجاد سلوة عن الخطب بذهابك إلى محل ناء عن بلدك ؛ فقد علمتنا التجارب القاسية أننا لا نقدر على الإفلات من الهم أو الهرب من المتاعب ، ووجدنا أن الأجدر بنا مواجهتها فى المحل الذى وقعت فيه ، إذ يظهر أن تلك المصيبة تلاحق الشخص إلى أقاصى المعمورة !

وفى نفس الوقت ... احرص على توطيد علاقاتك

مع الأصدقاء ، فإنهم عند الشدة درع حصين ، وخير معوان على درء الكوارث أو إضعافها !

إيه مارغريت العزيزة . . . لقد أطلعتك على قصتنا ولا شك أنك قد ظفرت بحقيقة لا شك فيها ، ذلك أن الزمن كفيل بإزالة القسم الأكبر من الشقاء والبؤس . . . وعما قريب سيواتيكم الحظ فتسعدون !

أنا لا أنكر أن ملاقاتكم ما نزل بكم فى مدينتكم يفتقر إلى شجاعة فى البدء . . . ولكن ذلك خير لكم من الفرار إلى بلد آخر ما دامت المصاعب تلاحق الإنسان أينما ذهب أو حلّ !

وفى النهاية . . . أختم كلمتى هذه ببضعة أبيات اقتطفتها من قصيدة صغيرة طالما وجدت الراحة فى ترديدها أثناء ما حل بنا وهى :

عند بلوغك أخطر نقطة فى حياتك ،
يجب عليك مواصلة سعيك برغم كل الصعوبات
إذ لا سبيل لرجوعك إلى الوراء أو إلى أى جهة أخرى .
وليس لك سوى السير حثيثاً إلى الأمام ،
فإن الدياجير لن تلبث أن تتبدد ، والعاصفة العاتية عن قريب ستزول .
والله على إراحتك خير معوان ونصير !

المخلصة : س . ب . س

« البصرة »

ناصر عزيز منصور
مدرس بمدرسة المشار الابتدائية

كتاب النقد التحليلى

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

هو أول كتاب فى اللغة العربية عالج النقد الأدبى بالطرق العلمية المؤدية ، والمقاييس المنطقية المنتجة . بناه المؤلف على نقد كتاب (فى الأدب الجاهلى) للدكتور طه حسين ، ولكنه استطرد لدرس مسائل مهمة فى قواعد النقد وأصول الأدب ومناهج البحث حتى جاء الكتاب مرجعا فى هذا الباب ونموذجا فى هذا الفن . وهو فى الوقت نفسه يغنى القارئ عن كتاب (فى الأدب الجاهلى) لأنه لخصه تلخيصاً وافياً .

يقع فى ٣٢٦ صفحة من القطع المتوسط
وثمنه ١٢ قرشا خلاف أجرة البريد
ويطلب من ادارة الرسالة

المجموعة الأولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزئين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان — عابدين)